درس في الرسم

بقلم : د . عبدالقدوس أبو صالح

كان ذلك الدرس عندما كنت طالبا في السنة الأولى من الجامعة، وكنت معتدا بذلك أيما اعتداد.

وكان أن جاءت الإجازة النصفية فعدت من العاصمة وفيها مقر الجامعة إلى مدينتي التي طال شوقي إليها وإلى الأهل والأصدقاء فيها.

وكان أخي الذي يكبرني بعدة أعوام يعمل في التعليم الابتدائي مدرسا في الميتم الإسلامي، وهو في الوقت ذاته يدرس في الجامعة طالبا منتسبا، ويستغل أي فرصة سانحة ليسافر إلى دمشق، مراجعا الشؤون الإدارية في الكلية التي يدرس فيها، حريصا على الحصول على المراجع والأمالي.

وما إن وصلت إلى حلب حتى طلب إليّ أخي أن أنوب عنه بالتدريس في الفترة التي سوف يسافر فيها، بعد موافقة مدير الميتم على ذلك.

قصدت الميتم في الصباح، وقادني أحد الإداريين إلى الفصل، وفوجئت بالتلاميذ الأيتام الصغار، وهم في صخب وضجيج وفوضى وبذلت جهدا في تهدئتهم، ونظرت إلى ما معهم فلم أجد إلا الأقلام والدفاتر، وكان أخي ترك لي أن أشغلهم بأي شيء ، ريثما يعود خلال يوم أو يومين فقط .

وهداني تفكيري إلى أن خير ما أبدأ به هو أن أرسم لهم على السبورة رسما سهلا، يحاولون أن ينقلوه إلى دفاترهم . وما هي إلا أن ناديت على الآذن - وهو يسمى في بعض البلاد العربية بالفراش - وطلبت منه أن يأتيني ببعض الحكك الملون، ثم مضيت أتفنن في الرسم، وأستعين بالتلوين حتى خيل إليّ أني أبدعت لوحة فنية رائعة، وطلبت من الطلاب الصغار أن يرسموا مثلها في دفاترهم.

ومضت الدقائق تلو الدقائق دون أن أرى أحدا من الطلاب يخط شيئا على دفتره، وإنما رأيتهم جميعا يحملقون مشدوهين، وقد تسمرت نظراتهم على السبورة في شيء من التعجب والذهول! ومع ذلك لم أفقد الأمل في قيام بعضهم على الأقل بما طلبت منهم، ومضيت أبين لهم ما أريد، وأساعد بعضهم على البدء بالرسم معللاً إحجامهم عن ذلك بصغر سنهم وحداثة عهدهم بالدراسة .

ولكن محاولاتي ذهبت سدى حتى أوشك الدرس على الانتهاء، وإذ بي أفاجأ بمدير الميتم يدخل عليّ حجرة الفصل ليطمئن على حسن قيامي بالمهمة التي أوكلت إليّ ..

وهنا بادرت المدير قائلا : يا سعادة المدير إنني طالب جامعي أستطيع التدريس في أي مستوى من مستويات التعليم الابتدائي، ولكنكم عهدتم إليّ بطلاب مبتدئين لم أجد منهم أي تجاوب في الدرس.

وها أنذا قد رسمت لهم هذه اللوحة السهلة، ولكنهم لم ينقلوا منها خطا واحدا ! .. وبينما كنت أتكلم بحماسة وانفعال رأيت سعادة المدير يحملق في اللوحة المرسومة على السبورة، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحيرة والدهشة، ثم قال فجأة: «ولكن ما الذي رسمته على السبورة يا أستاذ» ؟! .. وقد عجبت لسؤاله أشد العجب وبادرته مستنكراً: ألا ترى أنها «بطة» ؟ وهل هناك أسهل من رسم البطة ؟! .. لقد رسمت ياءين اثنتين، ثم وضعت المنقار والعينين، ولونت الريش والمنقار والأرجل! فصاح المدير بأعلى صوته :

« تقول هذه « بطة » ؟! .. لا يا أخي إن ما رسمته لا يمت إلى عالم الطيور ولا الحيوانات .. ولا بد أنك رسمت لهم «البراق» الذي أسري به الرسول ﷺ كما تصورته في مخيلتك العجيبة. وإذا كنت ترسم «البراق» على أنه « بطة » فماذا عسى أن يكون خطك لحروف الأبجدية فيما يفترض أن تعلمه لهؤلاء الطلاب المبتدئين؟!.».

وحاولت عبثاً أن أقول للمدير المحترم : إن البراق دابة، ولم يكن لها منقار ولا ريش. ولكن المدير لم يترك لي فرصة للرد عليه ولا الدفاع عن نفسي، بل تابع كلامه قائلا:« لقد أعفيناك يا أستاذ من المهمة التي كلفك أخوك بها .. وجزاك الله خيرا، وإني أتعهد أن «أداوم» عن أخيك طوال مدة غيابه خشية أن تستمر مع هؤلاء الأطفال فترعبهم بلوحاتك الفنية العظيمة»..!■